القداس الاحتفالي

القدّاس الاحتفالى
مصنف ١٢٣، مقام رى كبير

نستمع اليوم إلى نوع جديد على الغالبية منا، حتى بين ألاف الموسيقى العظيمة، ولا أحسب الكثير منا سمعوا «القداس الاحتفالى» الـMissa Solennis لبيتهوڤن، أو حتى سمعوا به، لأسباب لا تخفى على اللبيب. وكان من المستحيل على، وقد قدمت أهم أعمال بيتهوڤن، أن أترك أضخم عمل من أعماله خارج برنامجى هذا، أضخم بكل ما تعنى صفة الضخامة معنى ومبنى. فهو عمل يستغرق من الوقت أكثر مما تستغرق السمفونية الكورالية، آخر سمفونيات بيتهوڤن. يشترك فى أدائه أوركسترا سمفونى كامل، يسانده الأرغن، وهو أضخم وأعظم الآلات الموسيقية، وأربعة من المنشدين السولو اجتمعت لهم طبقات الأصوات التقليدية الأربعة فى علم الهارمونيا: السوبرانو والكونترالتو من أصوات النساء، والتنور والباص من أصوات الرجال، ثم كورس كبير يتألف من الطبقات الأربع للأصوات.

عمل جديد علينا، لأنه من صميم الموسيقى الدينية فى الطقوس الكاثوليكية العريقة، ولا يتاح لدارس تاريخ التطور والتحول العظيم فى الموسيقى الأوربية أن يفهم عوامل التطور بدون متابعة أثر الأناشيد الدينية منذ فجر المسيحية، ثم فى القرون الوسطى الأوربية، وما تلاها من حقبات نمو الحضارة الغربية.

وما أكثر ما أنحيت على نفسى بالائمة حيال ترددى طوال كل هذه السنوات فى تقديم أمثولات الموسيقى الدينية، من بالسترينا فى القرن

السادس عشر إلى باخ وهيندل وهايدن وموزار فى القرن الثامن عشر، حتى بيتهوفن وشوبرت وشومان ومندلسون وبرامز وبروكنر وفيردى فى القرن التاسع عشر. ومصدر ترددى كان نوعًا من الحرج المفهوم، وضعف استعداد المستمع الشرقى لتقبل أساليب الغناء الغربى.

نعم قدمت أعمالا غنائية: فردية من نوع الليدر، وكورالية مختارة من الأوبرات، وسمفونيات لجوستاف مالر استخدم فيها الصوت الآدمى مقتفيًا أثر بيتهوفن فى سمفونيته التاسعة، التى تحظى بأعظم قدر من الإعجاب لدى مستمعى البرنامج الإذاعى الثانى، وربما كانت أكثر ما يطلب المستمعون إعادة تقديمها مدعمة بالشرح أو بدونه.

وعلى الرغم من ترددى الذى طال أكثر من اللازم، فقد كنت أعرف مقدمًا أن لا مندوحة على الأقل من تقديم عملين من أعظم وأهم أعمال بيتهوفن فى الموسيقى الغنائية، وهما «القداس الاحتفالى» وأوبرا «ڤيديليو».

وأحب أن يعرف السامع أول ما يعرف، أيًّا كانت عقيدته الدينية، أن قداس بيتهوفن مقام رى من الديوان الكبير فى صدارة الموسيقى التى يتجه فيها عظماء التأليف إلى ربهم الأعلى، سواء حدث هذا فى أعمالهم الدنيوية الحرة، أو فى إطار ما درجت عليه بيوت العبادة المسيحية ـ على اختلاف مذاهبها ـ من استخدام الموسيقى فى ممارسة الشعائر، مثل القداس بأنواعه، والكورال البروتستانتى، والكانتاتة الدينية.

هذا إلى أن قداس بيتهوفن الاحتفالى، ذلك العمل الشامخ، قلما يؤدى فى الكنيسة، لأن مكانه الحقيقى هو قاعة الكونسير. وقاعات الموسيقى فى العالم المتحضر لا يمكن أن تخلو من الأرغن. مما حدا بوزارة الثقافة المصرية إلى أن تقيم فى صدر قاعة سيد درويش بمدينة الفنون أرغنًا من أكمل وأحدث ما تقدمه الصناعة التشيكية.

وحتى فى حياة بيتهوفن، لم يقدم قداسه فى كنيسة، وإنما سمعت ثلاثة أقسام من أقسامه الخمسة مع أول تقديم للسمفونية الكورالية. وأول ما قدم كاملا كان بمدينة سان بطرسبورج عاصمة روسيا القيصرية.

يجدر بنا إذن أن نقيم الحد بين موسيقى لا تنفصل عن أداء الشعائر، وموسيقى دينية فى روحها، ولكنها لا تدخل فى الطقوس والشعائر. بل يعبر بها الموسيقيون عن تهجدهم، متجهين إلى ربهم يطلبون منه الرحمة والغفران، وأن ينزل على قلوب البشر المحبة والسلام.

وبيتهوفن فى السمفونية التاسعة وضع تنويعًا للحن الفرح فيه جلال دينى ورهبة، وذلك عندما ينشد الكورس قائلا «أيها الملايين اسجدوا لفاطر السموات، خلقكم فسواكم. ميدى أيتها الأرض أمام ربك، إذ نسأله الرحمة والغفران».

وبرامز، مثلا، ولم يكن رجلا متدينًا، ألف عملا من أعظم أعماله الكورالية مع الأوركسترا فى رثاء والدته، ورثاء صديقه الحميم روبرت شومان، وكان أول من أشاد بفن برامز فى مطالع عبقريته. ويحمل هذا العمل اسم «قداس ألمانى للموتى» Deutsches repuiem. اختار له نصوصًا من الكتاب المقدس فى ترجمة مارتن لوتر.

وفيردى ألف مرثيته الكبرى لصديقه الكاتب والشاعر مانزونى، وقال فى رسالته لمحافظ ميلانو «إنه لدافع قلبى، بل هى ضرورة، تدفعنى إلى تمجيد ذكرى الرجل العظيم بكل ما فى وسعى - الرجل الذى أعجب به أشد الإعجاب ككاتب، وأجله كإنسان» ولقد وضع فيردى مؤلفه الخالد فى صيغة «القداس» المعروف بقداس الموتى Missa da Requiem.

وللموسيقى الفرنسى برليوز «قداس جنائزى» هائل، ألفه فى مناسبة

وطنية، مرثية لشهداء أبرياء سقطوا قتلى ثورة فى شوارع باريس.

قضى بيتهوفن قرابة خمسة أعوام فى صياغة قداسه الاحتفالى، أو ما يسميه البريطانيون «قداس من مقام رى كبير». وضعه فى الحقبة الثالثة من حياته الإبداعية، ما بين سنتى ١٨١٧، ١٨٢٢. وصفة الاحتفال هى محاولتى لترجمة كلمة Solennis بمعنى ظرف هام يجرى فيه احتفال. أى أن بيتهوفن لم يؤلف القداس مقام رى كبير ليؤدى كصلاة، بل احتفالا بتنصيب تلميذه وصديقه الأرشيدوق رودلف فون هابسبرج كبيرًا لأساقفة «أولمتز».

اختار لقداسه الاحتفالى مقام رى كبير، كما اختار لسمفونيته التاسعة مقام رى صغير، وسار العملاقان جنبا إلى جنب، أحدهما يمجد الفرح والأخوة الإنسانية، فى الحركة الكورالية، والآخر يتخذ كلمات القداس الكاثوليكى نصًا يعبر عن قنوته، راضيًا بقضاء ربه وحكمه جل وعلا، راجيًا عفو الغفور الرحيم وأن ينزل على قلوب البشر المحبة والسلام.

قال بيتهوفن فى رسالة إلى الأرشيدوق، معلنًا الانتهاء من القداس، متأخرًا عن ميعاد حفل التنصيب عامين، وقد استعيض فيه بمؤلفين لهايدن وهومل: «ما أسمى أن يتقرب الفنان إلى ربه، فيكون أقرب إليه من الآخرين، يشيع النور السرمدى بين البشر». وفى خطاب آخر «الفن والعلم وحدهما يسموان بالإنسان إلى أعلى عليين».

والقداس الاحتفالى ملحمة موسيقية تقف إلى جانب «الكوميديا المقدسة» لدانتى، و«الفردوس المفقود» لميلتون فى الآداب، كما تقوم ندا لفريسكات «الستينا»، مصلى البابوات فى الفاتيكان، من عمل ميكلانجيلو. عانى الموسيقى الجبار فى تأليفه معاناة لم يعهدها فى أى مؤلف آخر من مؤلفاته، بعد أن راجع أعمال أسلافه العظام من أول بيرلويجى دابالسترينا حتى فردريخ هيندل ويوهان سباستيان باخ، فارتفع بقداسه

ارتفاعًا شاهقًا، عن مستويات عصره، حين كان الموسيقيون يستعيرون أسلوب الأوبرا فى مؤلفاتهم الدينية.

ونحن وإن قلنا بان مكان قداس بيتهوڤن هو قاعة الكونسير، أكثر منه عملا لبيوت العبادة، فإنا لا نعنى بهذا أبدًا أن بيتهوڤن لم يكن متدينًا فحاول فى عمله أن يتجنب شعائر الكنيسة الكاثوليكية فى زعم بعض النقاد اللادينيين، استنادًا إلى تطلع بيتهوڤن، واطلاعه على بعض الديانات الشرقية، كالديانة المصرية القديمة، وديانة الهندوس، واعتمادًا على لوحة بخط بيتهوڤن، كان يضعها فوق مكتبه، نقل فيها صلاة لإيزيس: «أنا الكائن، وكل ما كان ويكون وما سوف يكون».

فبيتهوڤن كتب فى إبان عبقريته (الحقبة الإبداعية الثانية) قداسًا آخر مقام دو كبير، يؤدى بالكنائس فى شعائر الصلاة. ومع أنى لم يتح لى سماعه، بعد، فإن النقاد يجمعون على أنه جدير بأن تزداد معرفة ذواقة الموسيقى به.

إنما «القداس الاحتفالى»، بحكم ما يتطلبه من جيش المنشدين الكوراليين عدا المغنين الأفراد السولو، ومن الحشد الأوركسترالى، ثم بحكم الوقت الطويل الذى يستغرقه أداؤه، يجعل من المتعذر ومن غير المناسب أن تحتويه دور العبادة، أو أن يصاحب أداء الشعائر الكاثوليكية.

ومع كل هذا فقد التزم فى تأليفه نصوص القداس التقليدية فى لغتها اللاتينية، وفى أقسامه الخمسة. ولأنه لم يكن ملمًّا بهذه اللغة، فقد حرص على تلحين النص اللاتينى، وأمامه ترجمة حرفية له بالألمانية.

وإذا كنا نستمع اليوم إلى عمل فنى من أرفع ما عبر به فنان عن خشوعه وإيمانه بالعقيدة التى نشأ عليها، فجدير بنا ـ كل على دينه ـ أن نفتح قلوبنا لموسيقى من أروع ما ألف فى تاريخها كلها.

ولا أخفى عليكم الوقت الطويل الذى قضيته فى دراسة «القداس الاحتفالى» بنية أن أقدمه على حلقات خمس، ثم راودتنى فكرة تقديمه فى حديثين، وانتهيت إلى ضرورة الاستماع إلى العمل الفنى كاملا، وهى ضرورة فنية ونفسية إذا أريد له أن يؤتى ثماره، كما أراد له بيتهوفن وهو يكتب على رأس المدونة «إنه من القلب، ليته ينفذ إلى كل القلوب».

ولكن حساب الوقت، وقدرة احتمال المستمع فرضا علىّ إجراء اختزال واحد، لا أغتفره لنفسى، ولا يعزينى عنه سوى الأمل بأن تعلق السامع به سوف ينتهى به إلى محاولة سماعه كاملا. ولا أحسب البرنامج الثانى للإذاعة يضن على ألافه بأن يقدمه لهم كاملا بدون شرح أو تحليل.

وسأنهج الطريقة التى اتبعتها فى تقديم أى عمل غنائى سمفونى طويل، وهى أن أبدأ بتلاوة ترجمة النص أو خلاصة للقسم الواحد من القداس، ثم أقدم هذا القسم، وهكذا دواليك.

وكلمات القداس، ومعانى أقسامه معروفة عند إخواننا المسيحيين، ولكن الحاجة ماسة لاطلاع المستمعين جميعًا على معنى كل قسم، فلا يبقى لى بعد ذلك وقت للتحليل الموسيقى ـ وكان هذا ممكنًا لو نفذت فكرتى الأولى فى تقسيم القداس إلى حلقات ـ أما الآن فالسامع يقف وحده حيال الموسيقى، بعد أن يلم بمعانى النص، ويعرف ما عرف عن «القداس الاحتفالى» وظروف تأليفه.

القسم الأول: هو الـ«كيرى»، الكلمة اليونانية التى تعنى الرب. والقداس يردد طلاب الرحمة فى كلمتين يونانيتين «Kyrie eleison» أى «يارب ارحم» أو«ربنا نلتمس رحمتك» أو«رحماك يارب» يتداولها الكورس والمنشدون السولو، هى والابتهال إلى السيد المسيح Christe eleison فى نحو عشر دقائق.

القسم الثانى: ويعرف بالـ«جلوريا» أى تمجيد الرب، فيقول:

«المجد للرب فى علاه، وعلى الأرض السلام. نسبح بحمدك يارب، ونقدسك، ونعبدك، ونمجدك، ونرفع عقيرتنا بالشكر على نعمائك، أنت المولى، يارب السموات والأرضين.

«ويا سيدنا المسيح، يا حمل الرب، تحمل خطايانا، وتقبل صلواتنا ياشفيعنا، وارحمنا... آمين».

القسم الثالث: هو الـ«كريدو» يعلن فيه المسيحى أركان إيمانه ركنًا ركنًا، يبدأ بقوله: «أومن بإله واحد، خالق الأرض والسماء، وكل ما يرى وما لا تراه العيون» ثم يتبعه بتمجيد السيد المسيح، ويلخص حياته من الميلاد حتى يرفع عليه السلام إلى السماء، ويتلوه بالروح القدس، ثم يعلن إيمانه بيوم القيامة والحياة الباقية، ويختمه بكلمة آمين. وأكتفى من هذا القسم الثالث، برغم احتوائه على أجل وأروع ما جاء فى موسيقى هذا القداس، بتقديم الجزء الأخير منه وهو الخاص بالإيمان باليوم الآخر والحياة الباقية، وكلمة آمين. لأن بيتهوفن لحن هذا الجزء فى أسلوب «الفوجة» وقد ظهر فيها جديرا بأسلافه العظام بالسترينا وهايدن وسباستيان باخ. وسبق لمستمعى برنامجى هذا أن عرفوا بعض فوجات لباخ، ولعلهم يذكرون الفوجة التى ختم بها بيتهوفن صوناتة «الهامير كلافير». وتسمعون هنا، ربما لأول مرة فوجة غنائية، تظهرنا على هذا الأسلوب فى أروع بيان.

القسم الرابع: عنوانه «سانكتوس» وهذه بعض كلماته: «قدوس، قدوس، قدوس ربنا رب السبعوت، مجدك ملأ السموات والأرض، «هوسَنّا» (أى مرحى) فى الأعالى، مبارك من يقدم باسم الرب، «هوسنا» فى الأعالى وفى ختام صيحات الفرح «هوسنّا» تهدأ الموسيقى هدوءًا تامًّا وتنتقل إلى مقدمة أوركسترالية تمهد لدخول لحن للڤيولينة

المنفردة أكثر على وتر الكردان، خلب عقول الموسيقيين، وغدا نموذجًا لكل من نزع إلى تصوير نزول البركة من السماء، أو تصوير الملائكة فى علاهم، ولحن الڤيولينة هنا يصور «التبريك «Benedictus» فى قول القداس «مبارك من يقدم باسم الرب».

القسم الخامس: وهو الأخير عنوانه «آجنوس ديى» أى «حمل الرب» يتجه إلى السيد المسيح عليه السلام «حامل خطايا الدنيا» يستنزل رحمة ربه، وهنا يعود بيتهوڤن إلى لحن القسم الأول الـ«كيرى»، ويختم القداس بالضراعة إلى الرب أن يمنح عباده الطمأنينة والسلام، Dona nobis pacem فلنستمع إلى «القداس الاحتفالى» تأليف لودڤيج فان بيتهوڤن، مصنف ٨٠، مقام رى فى الديوان الكبير. ولنتذكر أن عظمة موسيقى بيتهوڤن شملت البناء والشكل والقالب، أودعها الفنان الخالد مضمونًا روحيًا. وهذا المضمون هو ما يدركه السامع مباشرة لأى عمل كبير من أعمال بيتهوڤن حتى لو لم تكن لديه القدرة على التعبير عما يشعر به. والمضمون الروحى فى «القداس الاحتفالى» شىء تعجز الكلمات عن سبر غوره، ومن حق الموسيقى التى انبعثت من قلب بيتهوڤن أن تنزل على قلوبنا بردًا وسلامًا تخفف من لواعجنا، وتطبب من جراح أنفسنا، آمين.